نور الدين العلوي | نشر في ١٨ سبتمبر ٢٠١٩,

دولة تونسية جديدة في الأفق

ما وراء الفرح التونسي بالانتخابات وأبعد من أشواق العرب إلى تقليدهم؛ تطرح الحالة التونسية أسئلة كثيرة عن العلاقة بين المواطن (الناخب) والسياسي. هناك متغير جديد عن أشكال الانتظام وسبل التواصل، فما جرى في تونس مختلف عن معتاد تحول إلى قاعدة حتى ظُن أنه القاعدة الوحيدة المتاحة والممكنة. يمكن دفع فكرة جديدة إلى مدى أبعد مما ظهر حتى الآن، انتهى حنين المواطن إلى الزعيم وانتهى المواطن العضو في الأسرة الحزبية، وهناك انكسار الرابط العاطفي مع الزعيم الأب ومع الحزب الأسرة، وحلول علاقة مؤقتة ذات طبيعة محدودة بإنجاز مهام في فترة محددة، بناءً على عقد عمل محدود المدة ومحدد بأهداف يفوض بمقتضاه المواطن شخصًا سياسيًا لإنجاز مهمة محددة ثم يتم استبداله.

العلاقة بين المواطن والسياسي تتحول إلى حركة ذات طبيعة محددة تشبه الاستعانة بعامل بناء لإجراء إصلاحات مقابل أجر، وسيكون هذا هو الوجه الجديد للتعاقد السياسي، وقد دشنه التونسيون دون كراسات نظرية وربما تحول فعلهم إلى كراسة مسالك لإنجاز التحولات الكبرى عبر تفتيتها إلى مهام محدودة تتراكم عبر الزمن السياسي والاجتماعي للمجتمعات.

تحرر المواطن من يتمه للزعيم الأب

في انتخابات تونس 2019 قدم سياسيون أنفسهم بصور مختلفة، فأكد الشباب على معنى الأخوة وأكد الكبار على معنى الأبوة، ولكن الشعب اختار الشخص الذي لم يظهر عاطفة جياشة وتحدث كخبير في إدارة الدولة، ورغم أنه ظهر بوجه أقرب إلى العبوس وتكلم بصوت إذاعي ولم يبتسم، فإنه حظي بالقبول حتى الآن (نكتب بين الدورين) واحتمال فوزه بالرئاسة أكبر من منافسه الذي يشتغل على تجييش العواطف ويبكي.

الجيل التونسي الجديد قال لآبائه تنحوا ونحوا زعيمكم سنحكم برئيس مختلف وسنعامله بعقد أهداف

كأنني سمعت المواطن التونسي يقول للسياسي (كل سياسي) لست يتيمًا ولا أحتاج أن أبكي على كتفك

وأمنحك مسرحًا لتمثيل دور الأب أو الأخ، قم بواجبك الذي نتفق عليه وأنا أراقب مدى إتقانك للعمل وأحكم، وقد أنهي التعاقد وأقطع الأجر. إنه فعل سياسي لكنه يشبه علاقة استخدام مخالفة تمامًا لعلاقة التبعية التي عاشتها الأجيال السابقة.

نتحدث هنا عن أجيال وعن انقلاب في تصور العلاقة مع الحاكم (السياسي عامة)، فهناك انقلاب جيلي ظهر في انتخابات تونس 2019، ويمكن التوسع في قراءته إلى حد القول بموت الزعيم الملهم والأب الروحي والشيخ ممثلاً خاصة في الزعيم بورقيبة، فكانت حملة بعض المنتمين إلى البورقيبية تقابل بحملات تصفير في الشارع وقرب تمثاله وتحظى أكثر بالتجاهل وظهر ذلك في نسب التصويت.

الجيل التونسي الجديد قال لآبائه تنحوا ونحوا زعيمكم سنحكم برئيس مختلف وسنعامله بعقد أهداف، وفي هامش هذا نلمح أن أحد الذين لم يستبقوا هذا الوعي هو حزب النهضة الإسلامي (رغم ما فيه من شباب يافع) قال الشباب للحزب من خارجه لا نحتاج شيخكم المعمم الفصيح رغم جمال جبته التونسية.

انتخابات 2019 في تونس أسقطت البورقيبية (الزعاماتية) إلى الأبد وفتحت باب تغيير سياسي، بل فرضت تفكيرًا من خارج منوال الزعامة مقترحة منوال تعاقد جديد (الرئيس الموظف عند شعبه).

تحرر المواطن من الأسرة الحزبية الحنون

لم تسقط انتخابات 2019 شيوخ السياسة وآباء الشعب الروحيين، بل أسقطت فكرة الانتظام الحزبي التقليدية أيضًا، فيمكن لشخص فرد أن يفوز دون استعمال ماكينة حزبية، فسبل التواصل الجديدة قدمت حلاً تقنيًا للفعل السياسي الجديد (التواصل الفردي والجماعي عبر الإنترنت وبالمجان تقريبًا). قيس سعيد في مواجهة مورو حالة دالة، الماكينة الحزبية القوية مقابل الاتصال الفردي الحر، ينطق الأمر كذلك على حالة سعيد في مواجهة الزبيدي والشاهد.

الأسرة السياسة بشكلها الحزبي الكلاسيكي إلى زوال لذلك قد نشهد مراجعات عميقة للأبنية الحزبية الكلاسيكية كما ورثناها عن تقاليد الديمقراطية التمثيلية من القرن 19

في حالة النهضة الأخوة الدينية ليست ضمانة لتصويت سياسي، وفي حالة الزبيدي التحشيد الجهوي (ما قبل الديمقراطية) ليست كفيلة بالتجميع. بل أكثر من ذلك المال الوفير لم يعد يضمن النجاح، فقد أنفقت حملات حزبية أموالاً كثيرة (يعلم االله مصدرها) ذهبت هدرًا ولم تضمن الفوز، بل فاز حتى الآن الرجل الفقير بحملة متطوعين لم يثبت أحد أنهم مرتزقة حملات ممن ينشط بمقابل في المواسم السياسية.

الأسرة السياسة بشكلها الحزبي الكلاسيكي إلى زوال، لذلك قد نشهد مراجعات عميقة للأبنية الحزبية الكلاسيكية كما ورثناها عن تقاليد الديمقراطية التمثيلية من القرن 19، ولا شك أن أشكال الانتظام الجديدة ستكون سائلة وغير منضبطة لأشخاص وزعامات ثابتة أو متحركة بما ينهي وجود الزعامة أصلاً، ويصير كل انتظام مؤقت ومرتبط بمهام، تمامًا مثل إدارة الدولة ومؤسساتها.

هل هي علوم الإدارة الحديثة التي تطورت في الشركات الكبرى (تيوتا وفوفو وسيمنس وغيرها) تنتقل إلى أساليب إدارة الشأن السياسي العام، يبدو ذلك من خلال تجربة تونس.

قتل هيجل

إذا كانت الديمقراطية التمثيلية قد قتلت الزعيم الأبدي في أوروبا وتأخرت عند العرب لأسباب نعرفها، فإن الأفق الذي دشنه التونسيون هو ديمقراطية تمثيلية تتجاوز الرئيس الأبدي كما الزعيم الحزبي المقدس في ذات الوقت بما يجعلها تجربة مؤسسة في العلوم السياسية.

يمكن القول إن إدارة الشأن العام تخرج من تصور الدولة الأب إلى الدولة الإدارة بضمان حرية الأفراد في الفعل وهذه صورة تهدم الدولة المقدسة المتعالية نائبة االلّه على الأرض (في مرحلة محددة/النهضة الأوربية) قتلت الدولة الإله وتصل الآن إلى مرحلة احتضارها للتحول إلى جهاز مبسط مهمته الأولى ضمان الحريات الفردية وضمان العيش المشترك دون أي قدسية موهومة.

هل ندفع المجاز إلى أقصاه فنقول: لقد قتل التونسيون هيجل بهواتف نقالة لم يخترعوها ولكنهم استفادوا من قدرتها على تغيير فكر العالم حتى إنهم لم يقرأوا هيجل.

كان جيلي من المتعلمين يضرب المثل بعسر هضم فلسفة هيجل في مسألة الدولة، فكنا نقول هذا الأمر المقرر أعسر من هيجل، وكنا نسقط في دروس الفلسفة إذا اختبرنا فيه، أدرك هذا الجيل جيًلا آخر من أبنائه يسأله هل كنت مضطرًا لقراءته ؟ ثم يضرب زر (الكنصلة) فإذا هيجل ذكرى وإذا دولة سائلة في الأفق.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/29415/